ضوابط التأويل في السنة النبوية

أ.د. عبد الحفيظ العبدلاوي

الكلية المتعددة التخصصات بمدينة الناظور/ المغرب

The Conditions of Interpretation in the Holy Sunna

Prof. Dr. Abdul Hafeedh Al-Abdalawi

The Multi Specialization College/ University of Muhammad I/ Al-Nadhoor/ Morocco

Abstract

The study of the conditions of Interpretation in the texts of the Holy spirit takes a stand on the origins and the truth of the all the speeches of the profit (peace be upon him and his holy household) .

يحتل مبحث ضوابط التأويل مركزا أساسا في موضوع: التأويل في نصوص الوحي الشريف، والدراسة المطلوبة فيه تقتضي الوقوف عند جميع الأصول والحقائق والأحاديث المؤولة خلافا للضوابط الشرعية وما نتج عن ذلك وينتج. والدراسة بهذه الصفة أمر واسع شاسع لا يتأتى في عجالة مختصرة.

لكن إن فات لطالب العلم، الإلمام بجميع تفاصيله فينبغي أن لا يفوته تصوّره وتصويره بحجمه الكبير ودوره العظيم فإن التصور السليم لمآلات التأويل يجعل الباحثين يدركون خطورة الخوض في محيطه بمعزل عن ضوابطه. الشيء الذي يجعلهم مراعين حرمة القوانين العلمية المعهودة عن الأمة.

فالتصور السليم هو الضابط الأول لحماية الفهم الصحيح والتأويل السليم فذلك من أجلّ أسباب التّهدّي إلى الصواب في أبوابه والاستفادة من نتائجه وأبعاده ومجانبة أخطائه وأخطاره.

فإننا عهدنا من خلال السنن الكونية أن التصور السليم سبب واعد وضامن للصواب في تأويل الحياة أصولا وفروعا، وأنه سبب واعد وضامن للصواب في تأويل الدين أصولا وفروعا.

فكل من نال حظا من دنياه، فبسبب تصوّر صحيح لضوابط التعامل معها، وعكس ذلك صحيح.

وكل من دخل إلى دراسة الإسلام مصحوبا بضوابطه، سلم وغنم. وعكس ذلك صحيح

والتاريخ قانون يصور أحوال المخلوقات تجاه تأويلاتهم للدين والدنيا، ويرفع نتائجهم أهدافا نافعة، وعبرا رادعة أمام الدارسين والمعتبرين. والإنسان الناجح من يستفيد من تاريخه، فالحسن منه يستحسنه ويستشرف نتائجه فينسج على منواله وينهل من معينه، والقبيح منه يستقبح آثاره ويبتعد عن أ سبابه ووسائله.

فقد عاشت الأمة زمانا وجد من دعاتها من دعا إلى قطع الصلة بالدنيا، وكرسوا مبدأ التشبع بالفقر ووضعوا أحاديث كذبا على رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] استقواء لهذا الفهم الخاطئ حتى قبل منهم على أنه تأويل ديني صحيح للدنيا، والحقيقة أنه كذب على الله وتزوير على الدين [2] أنتج علة وقلة وذلة.

كما وجد في تاريخ الأمة أيضا من أول السنة بعيدا عن الحياة اليومية في مجالاتها المختلفة وبعيدا عن الضوابط العلمية فنتج عن كل ذلك ثقافات وقناعات فاسدة تراكمت أمام الفكر الإنساني حتى تحوّلت إلى عقائد ومبادئ وتراث مسلّم أخذ موقعه في اتجاه معاكس للدليل الصحيح شكل انحرافا على مستويات كبرى فقهية وعقدية وسلوكية.خلفت صراعا وخلافا بين الأفهام والمفاهيم، وبين الأتباع والمتبوعين كل حاول الوجود لوجوده على حساب الآخر حتى وجدنا من حاول الوجود لقول مذهبه على حساب سنة رسول الله

1 ذكر بعضها الإمام القرطبي وبين وضعها وأبطل ما بني عليها من الافتراء على الشرع باستحباب الفقر. أنظرها في الجامع لأحكام القرآن عند قوله تعالى في سورة البقرة الآية 283.

2 ـ الإسلام المفترى عليه للشيخ الغزالي 55 ط نهضة مصر.

صلى الله عليه وسلم. ووجدنا من جعل مذهبه مقياسا لتفسير وتأويل الوحي الشريف، ومن جعل فهمه مقياسا لقبول ورد الحديث. وكان من هذا الاختلاف ما هو معلوم في باب الفقه الإسلامي من التعصب والتعصب المضاد. ووجدنا في باب العقيدة ما هو أشد وأسوأ.

لكن مهما وجدت هذه الخلافات وتعددت الاتجاهات، فليس ذلك بمؤثر على وضوح الحقيقة في شيء. فالدين محفوظ معصوم مضمون بضمان الله القاهر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ **الحجر**

والحقيقة واضحة لمن قصدها بصدق وتجرد. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم، فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعليكم بالطاعة، وإن عبدا حبشيا عضوا عليها بالنواجذ، فإنما المؤمن كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ، حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ[1])[2].

وعليه: فتبقى الحكمة من تعدد الاتجاهات ووجود الخلافات ليستمر قانون التدافع والممانعة في كل شيء كما هو بين الفقر والغنى، والشفاء والمرض.. فكل ذلك من التكليف والابتلاء لاصطفاء المتشوفين والباحثين عن الصراط المستقيم المنعوت والمضبوط بصراط الأمة.

يقول ابن الوزير اليماني: وطالب الحق اليوم شبيه بطلابه في أيام الفترة وهم سلمان الفارسي وزيد بن عمرو بن نفيل وأضرابهما رحمهما الله تعالى فإنهم قدوة الطالب للحق وفيهم له أعظم أسوة فإنهم لما حرصوا على الحق وبذلوا الجهد في طلبه بلغهم الله إليه وأوقفهم عليه وفازوا من بين العوالم الجمّة فكم أدرك الحق طالبه في زمن الفترة وكم عمي عنه المطلوب له في زمن النبوة فاعتبر بذلك واقتد بأولئك فان الحق ما زال مصونا عزيزا نفيسا كريما لا ينال مع الإضراب عن طلبه وعدم التّشوّف والتّشوّق إلى سببه ولا يهجم على المبطلين المعرضين ولا يفاجئ أشباه الأنعام الغافلين ولو كان كذلك ما كان على وجه الأرض مبطل ولا جاهل ولا بطال ولا غافل.[3]

فالحرص والبحث سنة شرعية وكونية تحمي الإنسان في فهمه من الانحراف ونفسه من الانجراف في متاهات التأويلات الباطلة دينا ودنيا.

الضابط الثاني: التفريق بين المؤول والمفسر من نصوص الوحي الشريف

لقد حسم الخلاف في التأويل فيما مضى لصالح القول بوجود نصوص من الوحي الشريف لا تتحقق معانيها وأبعادها إلا بتأويل، وذلك اليوم أشد حسما وأكثر مطالبة به، وذلك لظهور التأويل كمرتكز أساس لتمكين الإسلام من أبعاده الكبرى ورسالته الخالدة، ولظهور حقائق كونية علمية في تحالف معجز لسنن الدين تصديقا منها للصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

فالحديث الصحيح المشكل إذا عورض بقاطع مسلم عند نقاد الحديث ولم يمكن تخريجه إلا على وجه التأويل لزم تأويله.

والتوفيق في التعامل مع الوحي تفسيرا وتأويلا عمدة كبرى للوفاق بين التأويل والتفسير، ليأخذ التفسير مساره على مستوى الأحكام بعيدا عن التحريف، ويأخذ التأويل مساره على مستوى الأبعاد والإعجاز بعيدا عن التعطيل.

بذلك يقل الخلاف وتستنبط الأحكام التشريعية وتتجدد وفق نوازل الحياة فيظل الإسلام ظاهرا ملموس الروح بين أهله، وملاذا شافيا للحيارى في العالم المادي الجاف.

الأخطار الناجمة عن تفسير ماحقه التأويل، وتأويل ماحقه التفسير

ويمكن تصوير ذلك في النوعين التاليين:

النوع الأول: تفسير ما حقه التأويل

فالنص إذا كان من المؤول ففسر كان ذلك إفسادا لأحكامه وتعطيلا لأبعاده.

ومن خلال هذه النماذج التالية يتضح لنا ذلك

1 سنن ابن ماجه 16/1- حديث رقم: 43.ط دار الكتب العلمية.
2 أنظر المزيد من هذا الاستدلال في الضابط الرابع.
3 إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد لابن الوزير اليماني.
(ص: 27) الناشر: دار الكتب العلمية / بواسطة المكتبة الشاملة.

النموذج الأول: ما رواه مسلم من حديث عائشة رضي لله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأزواجه **[أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا]**[1]

فهذا النص مما يجب تأويله ولا يمكن تفسيره. إذ حمل الطول على طول اليد الجارحة لا يفهم واقعا ولا يحقق مقصودا و بعدا. فمن حيث الفهم فقد قالت عائشة رضي الله عنها فَكُنَّا – نساء النبي صلى الله عليه وسلم – إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم نمد أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة قصيرة ولم تكن أطولنا[2]، فعرفنا حينئذ أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أراد بطول اليد، الصدقة. قالت: «وكانت زينب امرأة صَنَّاعَةَ اليد فَكَانَتْ تَدْبُغُ وَتَخْرُزُ وَتَصَدَّقُ في سبيل الله عز وجل[3]، وكانت تلقب بأم المساكين[4]

ومعروف عن العرب أنهم كانوا يطلقون طول اليد على هذا المعنى ويطلقون عكسه على عكسه.

فيقولون: فلان طويل اليد وطويل الباع، إذ كان سمحا جوادا، وضده قصير اليد والباع وجعد الأنامل [5]

لذا فتأويل الحديث يحقق مقصدا تربويا متجددا وهو الطول الذي هو وسيلة لإيصال الخير إلى الضعفاء والمساكين فينعكس ذلك اجتماعيا بالإخاء ونشر التراحم، وينعكس مآليا بتحقيق وعد الله للرحماء بالجنة. فنعم هذا التأويل، ونعم هذا التشويق ونعم هذه التربية.

النموذج الثاني: ما رواه مسلم وغيره عن معاوية بن أبي سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **[المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة]**[6].

فحمل الطول هنا على حقيقته لا يضيف بيانا ولا يحقق بعدا. ولكن تأويله يحقق مكاسب ويشوق إلى مناقب فيتمنى كل رجل أن يحقق معنى الطول في يده وعنقه فيظل التنافس هدفا نافعا للمتنافسين رافعا لمعالم الدين. ويظل الزاد يزداد للمؤذن عهدا شافعا عند ربه يوم ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾وَلَدٗامريم. وهذه هي الأبعاد المتجددة على مستوى الإعجاز النبوي التربوي. وإذا فسر مثل هذا النص عطلت هذه التربية المقصودة بالتشريع، وعطلت النتائج الحاصلة بها.

. النموذج الثالث: ما رواه البخاري من وصية إبراهيم عليه السلام لولده إسماعيل عندما أرسل إليه بقوله **[غير عتبة بابك]** ومرة أخرى بقوله: **[ثبت عتبة بابك]** وها هي القصة بمعناها: روى الإمام البخاري أن إبراهيم لما هاجر ترك زوجته هاجر وابنه إسماعيل عند مكان البيت ثم رجع إلى فلسطين داعيا إلى ربه ... فجاءت قبيلة جرهم من اليمن فسكنت معهما فلما أدرك إسماعيل [زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد ولده إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت نحن بشرّ، نحن في ضيق وشدة فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، **وقولي له يغير عتبة بابه،** فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، **ويقول غير عتبة بابك،** فقال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت اللحم، قال فما شرابكم؟ قالت الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه»...قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، **ومريه يثبت عتبة بابه،** فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني

1 أخرجه مسلم في الصحيح باب فضائل أم المؤمنين زينب رضي الله عنها. أنظر شرح النووي على صحيح مسلم (8/16) ط دار الفكر.
2 قال النووي: ووقع هذا الحديث في كتاب الزكاة من البخاري بلفظ متعقد يوهم أن أسرعهن لحاقا سودة وهذا الوهم باطل بالإجماع. شرح النووي على مسلم (16/ 9) ط دار الفكر.
3 المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 26 - حديث: 6776 / ط دار ابن حزم
4 سير أعلام النبلاء للذهبي 217/2 ط. مؤسسة الرسالة
5 شرح النووي على صحيح مسلم (16/ 8 - 9) ط دار الفكر
6 صحيح مسلم بشرح النواوي 4/ 89 باب فضل الأذان ط دار الفكر - صحيح ابن حبان (4/ 555) حديث رقم: 1669 ط الرسالة العالمية

كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء ؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، **ويأمرك أن تثبت عتبة بابك**، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك ... الحديث[1].

فلو حمل لفظ الباب والعتبة على معناه حقيقة لما تعلق بذلك حكم ولا معنى. ولكن إذا أول، عبر عن مقصود تربوي جميل يتجدد عطاؤه بإعطاء المفهوم الكامل والمتكامل للزوجة المثالية الحافظة لأسرار بيتها والساترة لزوجها، ولفهمنا من خلال ذلك، الآيات الواردة في مواصفاتها وكونها لباسا ساترا. وسكنا حافظا. ولشكل ذلك درسا متكاملا واسعا للزوجة المثالية الوارثة للقدوة المعصومة بوصف نبوي شريف.

فالمرأة الصالحة الواعية من تتصف بمعنى الباب يغلق عما يجب ودونما يجب فلا يخرج من البيت سر ولا يدخل إليه شر.

النموذج الرابع: ما رواه البخاري عن حذيفة بن اليمان، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: أيكم يحفظ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتنة؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ كما قال، قال: هات، إنك لجريء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [فتنة الرجل في أهله وماله وجاره، تكفرها الصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر] قال: ليست هذه، ولكن التي تموج كموج البحر، قال: يا أمير المؤمنين، لا بأس عليك منها، إن بينك وبينها بابا مغلقا. قال: يفتح الباب أو يكسر؟ قال: لا، بل يكسر، قال: ذاك أحرى أن لا يغلق. قلنا: علم عمر الباب؟ قال: نعم، كما أن دون غد الليلة، إني حدثته حديثا ليس بالأغاليط[2]، فهبنا أن نسأله، وأمرنا مسروقا فسأله فقال: من الباب؟، قال: عمر[3].

فلا مجال لفهم المقاصد النبوية هنا إلا بتأويل الباب، وتأويل غلقه بسده في وجه الفتن، وتأويل كسره بقتله شهيدا وتأويل كسره بكونه لن يغلق بعد. وبتأويل ذلك كله اتضح المعنى، وأن عمر كان سدا منيعا وبابا مغلقا في وجه الفتن. وبقتله رضي الله عنه دخلت الفتن إلى الأمة. وخلافة عثمان رضي الله عنه ومحنته معلومة من ذلك. فبمقارنة ماضيه بحاضره وبما بعده يدرك معنى عمر الباب، ويتضح الحديث ويظهر الإعجاز النبوي الشريف ويطلعنا ذلك على أن في الوحي نصوصا لا تدرك أبعادها إلا بتأويل.

النموذج الخامس

ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **{خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها}**[4]

فلو حمل لفظ الحديث على ظاهره تفسيرا، لكان الحكم الفقهي، كراهية الصلاة في الصف الأخير للرجال والصف الأول للنساء. وهذا قول باطل. فالمراد به إذا تحفيز الرجال إلى التبكير للصلاة وفق حديث آخر: لو تعلمون ما في الصف المقدم لكانت قرعة[5].

والمراد بصفوف النساء، حثهن على تحري الحذر من المخالطة والقرب من الرجال [6] فالحديث يؤسس لقاعدة يقاس عليها. فإذا كان الأمر كذلك عند الصلاة وفي بيت الله فالأمر آكد وأشد في غيرهما.

النوع الثاني: تأويل ما حقه التفسير

والنص إذا كان من المفسر، فأول كان ذلك تحريفا له وإفسادا لأحكامه مثل التأويل المتعلق بالأحاديث التي لا يمكن فهمها إلا بغيرها من النصوص والضوابط.

وقد انبنى على هذا النوع من التأويل تحريف كبير في بابي العقيدة والفقه، واتسع العمل به وتعدد أهله واختلفوا فيما بينهم، فتعلق بذلك التأويل المذموم فلم تنحصر أبعاده في تحريف الأحكام وتعطيل الأبعاد، وإنما أحدث شرا متوارثا زاغ به الجهال واستغله الأشرار

1 ـ صحيح البخاري بفتح الباري (6/ 458 حديث رقم -3365 ط دار الريان للتراث

2 قال ابن حجر: والأغاليط جمع أغلوطة وهو ما يغالط به، أي حدثته حديثا صدقا محققا من حديث النبي صلى الله عليه وسلم لا عن اجتهاد ولا رأي. فتح الباري لابن حجر كتاب المناقب (6/ 702) حديث رقم 3586 ط. دار الريان للتراث ـ لسان العرب 10/ 96 مادة غلط. ط دار صبح.

3 رواه البخاري في الصحيح فتح الباري (353/3) ـ حديث رقم: 1435 / وفي 6/ 698 رقم 3586. ط دار الريان للتراث.

4 رواه مسلم في الصحيح شرح النووي (4/ 159 باب تسوية الصفوف وإقامتها ط. دار الفكر.

5 المصدر السابق.

6 المصدر السابق.

مطاعن في الدين وإخراج أفواج منه تفرقت فرقا شتى، كل منها أحدثت منهجا معينا في الدين استباحث به حراما، وردت به أحاديث وحرفت به الأسماء والصفات وغيرت حقائق من الدين كما أشار ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث[1].

وابن القيم في إعلام الموقعين فقال: إن هذا التأويل هو منشأ كل المصائب الواقعة في الأمة فأصل خراب الدين والدنيا إنما هو من التأويل الذي لم يرده الله ورسوله بكلامه ولا دل عليه أنه مراده، وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل؟ وهل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل؟ فمن بابه دخل إليها، وهل أريقت دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل؟ [وهل فسدت الأديان السابقة إلا بالتأويل]

وبالجملة فافتراق أهل الكتابين، وافتراق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إنما أوجبه التأويل، وإنما أريقت دماء المسلمين يوم الجمل وصفين والحرة وفتنة ابن الزبير وهلم جرا بالتأويل، وإنما دخل أعداء الإسلام من المتفلسفة والقرامطة والباطنية والإسماعيلية والنصيرية من باب التأويل، فما امتحن الإسلام بمحنة قط إلا وسببها التأويل؛

وما الذي سفك دم أمير المؤمنين عثمان ظلما وعدوانا وأوقع الأمة فيما أوقعها فيه حتى الآن غير التأويل؟ وما الذي سفك دم علي – رضي الله عنه – وابنه الحسين وأهل بيته – رضي الله تعالى عنهم – غير التأويل؟ وما الذي أراق دم عمار بن ياسر وأصحابه غير التأويل؟ وما الذي أراق دم ابن الزبير وحجر بن عدي وسعيد بن جبير وغيرهم من سادات الأمة غير التأويل؟ وما الذي أريقت عليه دماء العرب في فتنة أبي مسلم غير التأويل؟

وهل دخلت طائفة الإلحاد من أهل الحلول والاتحاد إلا من باب التأويل؟ [2]

لذا كان ابن سيرين يرى أن أسرع الناس ردة أهل الأهواء. [3]

فمخاطر التأويل بالجهل، والتأويل بلا ضوابط، والتأويل من غير أهله كثيرة وشديدة.

وإذا وقفنا على أحوال الفلاسفة الذين تجردوا من ضوابط الدين والعلم في تفسيره وتأويله، نجد طريقهم قد انتهى إلى مآل مخيف ؟ فمنهم من كذب نفسه بالفطرة وتجرد من علمه وعاد إلى عقيدة أمه وأقبل على أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم مستسلما، فمات واضعا صحيح البخاري على صدره كما فعل الغزالي رحمه الله [4]

ومنهم من أكمل السير في التاويل بالهوى حتى تزندق كما وقع للحلاج وأصحابه [5]

الضابط الثالث: التعامل مع التأويل بهيبة وحذر

. وبعد معاينة ما سبق من الأخطار الناجمة عن التعامل مع تأويل نصوص الوحي وقواعدها بعيدا عن الضوابط الشرعية تتجلى لنا صعوبة القضية. الشيء الذي يستوجب على المتعامل مع التأويل أن ينظر إليه بنظرة الهيبة والإجلال و الاستعظام فيستعين بما يجب الاستعانة به من علوم وضوابط وتقى وتضرع إلى الله سائلا مستهديا.

وتكمن صعوبة الموضوع في وجود علاقة رقيقة في تأويل المتشابه بين التأويل الصحيح والباطل لكونه مما ابتلى الله به العباد فمن لم يتقيد بالاتباع والعلم والتقى والتجرد من الهوى والعصبية، تعلق الفساد بتأويله والزيغ في أفعاله وأقواله يختلف حجم خطورة ذلك باختلاف مراتب ومدلول ما يحرفه من النصوص.

قال الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾آل عمران[6].

1 وبين مخارج تلك الأحاديث، والفرق التي زاغت بتحريفها وكيف زاغت.
2 إعلام الموقعين عن رب العالمين 4 /251 - 252 ط دار الفكر بيروت
3 الاعتصام للشاطبي (1 / 67 / ط. دار الفكر
4 وقد تحدث الإمام الطحاوي في العقيدة الطحاوية عن هذه المأساة التي وقعوا فيها. أنظر ص 227 ط المكتب الإسلامي
5. أنظر ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي 71/2 ترجمة 2059 ط دار الفكر العربي
6 قال أهل العلم: التشابه يكون حقيقيا وإضافيا. فالحقيقي لا سبيل إلى فهم معناه، وهو المراد من الآية: {وما يعلم تأويله إلا الله} والإضافي: ما اشتبه معناه لاحتياجه إلى طلب دليل آخر، فإذا طلبه العالم وجده

قال محمد بن جعفر بن الزبير ومجاهد وابن إسحاق: المحكمات لا يتعلق بها تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه. والمتشابهات يتعلق بها تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد.

وقال النحاس: أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات أن المحكمات ما كان قائما بنفسه لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره. والمتشابهات ما لا يدرك المراد منه إلا بالرجوع إلى غيره[1].

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ﴾ إلى: ﴿ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ثم قال: [إذا رأيتم الذين يبتغون ما تشابه منه فـأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم[2]].

لذلك كان أهل التأويل الصحيح معدودين بعدد، محدودين بحدود وصفات، لهم تأهيل خاص. منهم: ابن عباس وعمر ومعاذ خصهم النبي صلى الله عليه وسلم بتزكية ودعاء خاص كما سنرى في الضابط التالي.

ولم يخض فيه بعد الصحابة إلا القليل مثل ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث، والطحاوي في شرح مشكل الآثار وابن حجر في ثنايا شرحه لصحيح البخاري، ومسلم كذلك في شرحه لصحيح مسلم وعامة الشروح التي سلك أهلها مسلك أهل الحديث وأهل التحقيق منهم. هي متمسك من يحرص على أن يستبرئ لدينه وعرضه.

وخلاصة هذا، أن المتحدث عن السنة ثبوتا وردا، تفسيرا وتأويلا، لايأمن من المخاطر إلا في ظل هؤلاء. ومن زعم الاستغناء بدونهم فحتما سيقع في تقرير ماليس بمقصود. وقد عنون ابن القيم رحمه الله لهذه المسألة بكتابه: إعلام الموقعين عن رب العالمين.

الضابط الرابع: تحكيم منهاج الأمة، فهمها وتأويلا وتفسيرا

ويتعلق بهذا الضابط عدة مسائل منها:

أولا: التأصيل لعصمة منهاج ا لصحابة

وهذا ضابط جليل، وسداد الله وسداده [3] في الأرض عظيم وهو ميزان التفسير الصحيح والتأويل السليم والفهم القويم لأصول الدين ونصوصه العلمية والعملية يعصم المتعامل مع الدين تفسيرا وتأويلا [4] من الوقوع في المخالفات الفقهية والمتاهات الفكرية والضلالات العقدية.

والواقعون قديما في التأويلات الفاسدة الخطيرة التي تطورت على مستويات كبرى . كما سبق . إنما وقعوا فيها بتخطّيهم لهذا الأصل العظيم.

فمنهاج الصحابة أصل متين مفتاح الفهم عن الله ورسوله مؤصل بنصوص الوحي وبتطبيق الأمة له تطبيقا متواترا عن النبي صلى الله عليه وسلم تجلّى فيه العصمة والمحجة البيضاء الممدودة مع الأجيال مهما امتدت الدنيا كما وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم: **{قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين من بعدي، وعليكم بالطاعة وإن كان عبدا حبشيا عضوا عليها بالنواجذ}**[5].

وقال صلى الله عليه وسلم {**لا يجمع الله أمتي على ضلالة أبدا، ويد الله على الجماعة هكذا – ورفع يديه – فإنه من شذ شذ في النار**}[6].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك}[7].

1 تفسير القرطبي (4/ 11) ط دار الكتب العلمية.
2 صحيح البخاري بفتح الباري 57/8 حديث رقم: 4547 – كتاب التفسير باب (منه آيات محكمات) - الاعتصام للإمام الشاطبي 54/1 / ط. دار الفكر
3 السداد الأولى بفتيح السين ومعناها: السلامة في السير. والسداد الثانية بكسر السين ومعناها الظفر بالمطلوب بعد الوصول.
4 ـ سواء بالبحث والفهم والدراسة منظّرا، أو بالسماع والقراءة مقلّدا ـ
5 المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 127 رقم 331 ط دار ابن حزم
6 المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 152 حديث: 399
7 صحيح البخاري كتاب المناقب - فتح الباري 731/6 حديث 3640 / 3641) ط. دار الريان.

وقال صلى الله عليه وسلم **{عليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية}**[1].

فشكل هذا المعنى منهاجا متبعا لدى الصحابة الكرام فثبت عن أبي بكر أنه كان يستشير عمر وفقهاء الصحابة ومن خصهم النبي صلى الله عليه وسلم بالدعاء أو خصهم بتزكية أو بإسناد مهمة إليهم.

كما نجد ذلك مجسدا في عمله أثناء جمعه للقرآن، وكما تشير إليه خطبة خلافته: [إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني][2].

وثبت عن عمر أنه اتبع سلفه فجعل تلك النخبة من الصحابة الكرام أهل مشورته فلازم الاستشارة لهم لاسيما بن عباس ومعاذ وابن مسعود وأمثالهم. لإدراكه الأسرار الممدودة من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم. فقد قال ابن عباس رضي الله عنه [ضمني النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال: اللهم علمه الحكمة] [اللهم علمه الكتاب][3].

ولما بلغه استنكار الصحابة إدناءه له، قال لهم: سأريكم اليوم ما تدركون به فضله فجمعهم ثم سألهم عن أبعاد سورة النصر فكان ابن عباس الوحيد الذي استنبط من نزولها قرب أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله إياه، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول.[4]

وكان علي رضي الله عنه يقول: ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق.[5]

قال ابن الأثير: وكان يسمى البحر، لسعة علمه، ويسمى حبر الأمة، ولد والنبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته بالشعب من مكة، [أي زمن الحصار. ولد من والدين وهما في منتهى الشدة وألم البلاء والمعانات بكل المقاييس وهما يترجمان النصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل استماتة فلما ولد] أتي به النبي صلى الله عليه وسلم فحنكه بريقه. وقد رأى جبريل عند النبي صلى الله عليه وسلم مرتين[6]، وسمع نجواه لرسول الله وعاينه، **ولازم عمر أيضا** معاذ بن جبل رضي الله عنه لإدراكه أسرار قول النبي صلى الله عليه وسلم فيه:

– أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب وأفرضهم زيد بن ثابت وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ألا وإن لكل أمة أمينا وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح"[7].

فكان عمر يستشير معاذا، فإذا عارضه توقف. ذكر الإمام الذهبي في السير أن رجلا غاب عن امرأته ثلاث سنين وجاء وهي حبلى فشاور عمر الناس في رجمها فقال معاذ بن جبل: يا أمير المؤمنين إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل فاتركها حتى تضع فتركها فولدت غلاما شديد الشبه بالرجل وقد خرجت ثنيتاه فقال الرجل: ابني ورب الكعبة[8]، فقال عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ لولا معاذ هلك عمر. ولما خطب عمر بالجابية قال: من أراد الفقه فليأتي معاذ بن جبل[9].

صحيح مسلم بشرح النووي (67/13) ط دار الفكر

1. المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 330 - حديث رقم 765 ط دار ابن حزم). قال الحاكم: هذا حديث صدوق رواته، شاهد لما تقدمه، متفق على الاحتجاج برواته إلا السائب بن حبيش، وقد عرف من مذهب زائدة أنه لا يحدث إلا عن الثقات.

2 التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر 57/3 ط. المكتب الإسلامي

3 أخرجه البخاري - كتاب فضائل الصحابة باب ذكر عبد الله بن عباس فتح الباري 126/7 حديث (3756). ط دار الريان للتراث - والبغوي في شرح السنة 224/7 ،حديث (3835) (3836) ط دار الكتب العلمية.

4 فتح الباري 606/8 -607 حديث رقم 4970 ط. دار الريان للتراث.

5 الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 27/1 ، المقدمة. ط دار الكتب العلمية.

6 أسد الغابة لابن الأثير (3/ 291) ط. دار الكتب العلمية.

7 صحيح ابن حبان – بتحقيق شعيب الأرنئوط (16/ 74) 7131 - ط الرسالة العالمية - سنن الترمذي 5/ 623 - حديث رقم 3791 – دار الكتب العلمية

8 وكان في العرب من هم معلومون بالقيافة. قال ابن منظور: والقائف الذي يتتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه... ومنه قيل للذي ينظر إلى شبه الولد بأبيه قائف. لسان العرب 318/11 مادة قوف ط. دار صبح، والأصل في اعتبار القيافة من العلم ما رواه مسلم: عن عروة، عن عائشة، قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم مسرورا، فقال: " يا عائشة، ألم تري أن مجززا المدلجي دخل علي، فرأى أسامة وزيدا، وعليهما قطيفة قد غطيا رءوسهما، وبدت أقدامهما، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض " صحيح مسلم كتاب الرضاع – باب العمل بإلحاق القائف الولد - شرح النواوي 10/ 40) ط. دار الفكر.

9 سير أعلام النبلاء 452/1 ط. مؤسسة الرسالة.

وكذلك كان حاله أيضا مع ابن مسعود لأسرار سيرته الخاصة مع الوحي الشريف فقد ثبت عنه أنه قال: أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة ما نازعني فيها بشر[1].

وقال: وما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت وفيما نزلت ولو أعلم أحدا أعلم مني تبلغه الإبل لرحلت إليه.

وقال: ولقد علم أصحاب محمد أني أعلمهم بكتاب الله ولو أعلم أحدا أعلم مني لرحلت إليه. قال شقيق: فجلست في حلق من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فما سمعت أحدا منهم يعيب عليه شيئا مما قال ولا يرد عليه.[2] وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بأنه عليم معلّم ،وبه بدأ في وصيته **{خذوا القرآن من أربعة، من عبد الله بن مسعود، ومن أبي بن كعب، ومن سالم، ومن معاذ**[3]**}**.[4]

وعينه الله باسمه أن يقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم[5]، كما عين أبي بن كعب أن يقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم[6].

وهكذا تشكل المنهاج النبوي في الصحابة الكرام بتزكيته صلى الله عليه وسلم ودعائه وإشرافه على اجتهادهم وفهمهم وتأويلهم وتطبيقاتهم للحياة التعبدية والعلمية. وهكذا امتدت العصمة إلى الأمة وإن فقد من بينهم رسولهم صلى الله عليه وسلم.

لهذا ثبت عن ابن عباس أنه كان يفتي بكتاب الله، فإن لم يجد فبما في سنة رسول الله، فإن لم يجد أفتى بقول أبي بكر وعمر. لأن عملهما إشراك لجميع فقهاء الصحابة وهم ممثلون للأمة والأمة معصومة.

وقد أجمع الصحابة عليه فاختلفوا أقوالا، ولم يختلفوا أحوالا ومنهاجا. وورثه التابعون وتابعوهم وأصلوا لحرمته ومتابعته. وانتقل إلى الأمة بهذه القدسية والتواتر. فوقف الأئمة مواقفهم الجليلة حماية له من كل دخيل وتحملوا من أجله كل صنوف التنكيل والتعذيب. وكان من ذلك موقف الإمام احمد في وجه الاعتزال وموقف الإمام الشافعي في وجه الزندقة ومواقف الإمام مالك المتعددة. فلما سئل عن الاستواء اعتبره انحرافا عن منهاج فأجاب السائل بوجوب الاتباع لما هو معلوم.

وحبس . أي مالك . تلميذه عبد الرحمن بن مهدي بسبب وضعه برنسه أمامه في المسجد واستحلفه على أن يكون ذلك خروجا منه على من سبق وإظهارا للخلاف عليهم فحلف له ابن مهدي على السبب وأنه ثقل عليه رداؤه فقط وأخذ على نفسه أن لا يفعل ذلك في مسجد أبدا[7].

وروى المزني أو الربيع قال: كنا يوما عند الشافعي إذ جاء شيخ عليه ثياب صوف في يده عكازة فقام الشافعي وسوى عليه ثيابه وسلم الشيخ وجلس، وأخذ الشافعي ينظر إلى الشيخ هبة له إذ قال الشيخ اسأل؟ قال: سل ،قال: ما الحجة في دين الله؟ قال: كتاب الله، قال: وماذا؟ قال: سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ماذا؟ قال: اتفاق الأمة. قال: من أين قلت اتفاق الأمة؟ فتدبر الشافعي ساعة فقال الشيخ: قد أجلتك ثلاثا فإن جئت بحجة من كتاب الله وإلا تب إلى الله تعالى. فتغير لون الشافعي ساعة ثم إنه ذهب فلم يخرج إلى اليوم الثالث بين الظهر والعصر وقد انتفخ وجهه ويداه ورجلاه وهو مسقام فسلم فلم يكن بأسرع من أن جاء الشيخ فسلم وجلس فقال: حاجتي ؟ فقال الشافعي: نعم ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال الله تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ **النساء**

قال: فلا يصله على خلاف المؤمنين إلا وهو فرض فقال: صدقت وقام فذهب فقال الشافعي: قرأت القران في كل يوم ثلاث مرات حتى وقفت عليه[1].

1 أخرجه البخاري ـ فتح الباري 8 / 662 حديث رقم (5000) ط دار الريان.
2 سير أعلام النبلاء 473/1 ط مؤسسة الرسالة.
3 أخرجه البخاري ـ فتح الباري 128/7حديث [3760 - 3806 – 3808.
4 راجع للمزيد ، مقدمة إعلام الموقعين ،عن رب العالمين.
5 أسد الغابة في معرفة الصحابة 383/3 ط. دار الكتب العلمية
6 أسد الغابة في معرفة الصحابة 169/1
7 الاعتصام للإمام الشاطبي 320/2

فالدخول إلى الدين بواسطة أصول الدين وضوابطه ومنهاج الأمة الممثل في الصحابة الكرام، ركن السلامة في فهم الدين وتفسيره وتأويله والتعبد به.

ثانيا: خصوصيات الصحابة في تحديد منهاج الأمة المعصوم

فللصحابة خصوصية في تحديد منهاج الله في الأرض أمام المناهج المختلفة كما يصورها قوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ **الأنعام**

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته كلها يعلم الصحابة الدين ويشركهم في فهمه وتفسيره وتأويله والاجتهاد في الفتوى، ويعد مجتهدهم بالأجر أصاب أم أخطأ ويشرف على ذلك فيسدد ويصحح وهو – صلوات ربي وسلامه عليه – في كل ذلك يكونهم لهذه المهمة والأمانة لفترة ما بعده صلى الله عليه وسلم، كيف يسطرون منهاجا لأمته في كل مناحي الحياة العلمية والتعبدية والاجتماعية. فمن الضروري أن يكون لإعداده صلى الله عليه وسلم أسرار وحكم، ولتوجيهه حرمة وعصمة، إذكل وحي من الله تعالى عليه مقصود في تشريعه.

وقد سبق الحديث في ضمته لابن عباس إلى صدره ودعائه له بالفهم وحسن التأويل فلهذه الضمة أسرار، ولدعائه المبارك حرمة في شرع الله وكونه[2].

كما أن لضمة جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم أسرارا خالدة معجزة في عالم الإعجاز.

فيستحيل أن يكون فهم وتأويل رجل من الناس كفهم وتأويل ابن عباس. كما أنه يستحيل أن تكون ذاكرة رجل من الناس كذاكرة أبي هريرة . وإن كان في القدرة على الاستيعاب ممكنا لكن في الكيف والسر ممتنعا .. ويستحيل أن يكون علم رجل بكتاب الله مساويا لعلم ابن مسعود وأبي بن كعب فأحدهما قرأ على رسول الله والآخر قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا نجد خصوصيات في سائر الصحابة رضي الله عنهم قدرا من الله وإرادة فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: [خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم][3].

فالخيرية محققة منه صلى الله عليه وسلم لهم من نزول الوحي عليه وهم ينظرون، ومن نظره إليهم ونظرهم إلى وجهه الشريف ولسانه المبارك وهو ينطق بالوحي. ومن نظر إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعينه واستقبلهم بوجهه الشريف وقصدهم بحديثه وروايته، وأمله ودعاؤه ربه أن يحفظوا دينه ويطبقوه ويعلموه ويفهموه وأن يرثوه في تطبيقه شعائر، وفي تسطيره منهاجا للأمة بعده إلى يوم الدين فاستحال أن يشابه أحد من الحفاظ حافظهم، ولا أحد من المفسرين مفسرهم ولا أحد من المؤولين مؤولهم وهلم جرا[4].

وبإدراك حجم هذه المعاني الواسعة، ندرك حجم الاستدلال بقوله صلى الله عليه وسلم {لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه}[5].

وإذا أردنا أن نتصور حجم الانحراف ونوعه وبعده فيمن يعترض على الصحابة الكرام، أو من يزنهم بنفسه فإننا نجد عبارة: أكثر أبو هريرة – التي يرددها المارقون اليوم – قد قالها النظّام المعتزلي قديما. وتبنى بها اعتراضا على حافظ الصحابة ومنهاج الأمة فتفرقت به سبله إلى ما ذكره الذهبي في ترجمته حيث قال: ولم يكن النظام ممن نفعه العلم والفهم، وقد كفره جماعة. و كان على دين البراهمة المنكرين للنبوة والبعث، ويخفي ذلك. ورد في ترجمته أنه سقط من غرفة وهو سكران فمات[6].

لضابط الرابع: التسليم للسنة المشرفة باعتبارها وحيا مقدسا بكل أبعاده

مما يجب على المتعامل مع السنة أن يتأكد من ورودها. فما وجد الحكم بصحته عن النقاد، والعمل به عن سلف الأمة وجب عليه التسليم به. وما قصر عنه عقله من الأحاديث المشكلة عليه أن يزنه بقدسية السنة وكمالها وإعجازها وشمولها لجميع الأزمان وأن

1 سير أعلام النبلاء 82/10 - 84 ط مؤسسة الرسالة
2 المصدر السابق 3/ 337
3 أخرجه البخاري في الصحيح - فتح الباري 5 /306 حديث رقم: 2651 ط دار الريان
4 أنظر لسان الميزان لابن حجر 1/ 67 / ط. دار الكتاب الإسلامي - وسير أعلام النبلاء 541/10
5 صحيح مسلم بشرح النووي 92/16 - باب تحريم سباب الصحابة ط. دار الفكر
6 سير أعلام النبلاء 10/ 542 -

تفسيرها وتأويلها المتجدد، وأسرارها المنبعثة مع العلم إلى يوم الدين، لم تجمع إلا في قلب محمد صلى الله عليه وسلم معجزة له كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى **{كل يؤخذ من كلامه ويترك إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم}**[1].

والأمة بعده معصومة في الدين جملة. فالصواب حليف الاعتقاد بعصمة الأمة في الدين لا بعصمة الأئمة، والأئمة والعلماء هم في الفهم والإدراك على درجات، وهم بالزمن كذلك على درجات، فيدرك إمام مالا يدركه آخر، ويدرك عالم ما لا يدركه آخر، ويدركان في زمن ما لا يدرك في زمن آخر. فجهود العالم جزئية فيما يتكون به الفهم الكلي للدين. وجهود العالم في زمن وزمن حلقة فيما تتجدد به معالم الدين وهيمنته وإعجازه، فواجب العالم أن يقول ما يدرك، ولا يتكلف أن يدرك كل شيء. احتراما لهيمنة الرسالة وخصائصها واحتراما لسنة الحياة وحتمية تقدم ومستوى كل بيئة[2].

ثم إن العباد مختلفون في إصابة الصواب باختلافهم في دوافع الإدراك وجوالب الأرزاق، يقول ابن تيمية: وربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم وأقول يا معلم آدم وإبراهيم علمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة، وأمرغ وجهي في التراب وأسأل الله وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني[3].

وقد لا يهتدي إلى الفهم إلا في رمضان. لأنه كلما حقق العالم مزيدا من التقى أدرك عن الله مزيدا من الصواب والهدى واكتشف مزيدا من الأسرار ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٢٨٢﴾ **البقرة**

وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾[4] **العنكبوت**

ويقول ابن القيم: بوابة الدخول إلى الله هو الذل لله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتذلل لربه ويخضع، كما ظهر ذلك من حاله في غزوة بدر[5].

فإذا تعامل المتعامل بهذه القناعة فإن الله تعالى يفتح له الحجب ويلهمه الصواب في تفسيره وتأويله وتسليمه. وإن تعامل بخلفية تحكيم العقل والاستدلال على الوحي ومحاولة إدراك الكل فمن طبيعة الحال أن يتعرض تفسيره وتأويله للخطأ والتحريف.

ثم إن إشكال بعض الأحاديث على الأفراد والأزمان، مقصود لله تعالى في تشريعه ففي الوحي ما هو محكم ومتشابه تعلقت بذلك حكمة الله الممدودة مع دينه. وكم من متشابه ظل زمانا كذلك فإذا بآيات الكون تلحقه بالحكم. قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ فصلت

وقال تعالى: ﴿وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ **النحل**

فلو تعامل المتقدم مع مثل هذه الدلالات بالعقل المحض، وبنية إدراك الكل ماذا عساه أن يتصور ؟

فالعالم أو طالب العلم مأمور أن يجتهد ليدرك فإن عجز، لزمه التوقف والتسليم لله تعالى، وذلك من الإدراك بمكان. قال الله تعالى ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ **آل عمران**

لذا، فالإدراك لا يمثل في فهم الصور والمعانى فقط، وإنما الأعلى منه إدراك التسليم لله ورسوله لذا، فقد أشكلت كثير من الأحاديث على أئمة السلف فلم يتجرءوا على ردها أو تأويلها بغير مقياس ولا ضابط وإنما حاولوا التوصل إلى مغزاها، وما لم يدركوه سلموا وتوقفوا وتركوه لمن بعدهم، فكانت عائداته، مسايرة الدين للزمن الممدود.

1 المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للسخاوي 327 رقم النص 815/ ط دار الكتب العلمية
2 الكلمات الأخيرة مقتبسة من الإعجاز البياني للدكتورة عايشة بنت الشاطئ 34 ط. دار المعارف
3 رأس الحسين لشيخ الإسلام بن تيمية (ص: 176) تحقيق ودراسة: الدكتور السيد الجميلي / من المكتبة الشاملة.
4 تفسير القرطبي 242/13 تفسير سورة العنكبوت آية: 69.
5 شرح مختصر الصارم المسلول محمد حسن عبد الغفار ص 5.

ولهذه الحكمة لم يفسر النبي صلى الله عليه وسلم القرآن كله، والسؤال واقع لم ذلك، والجواب أن القرآن كتاب الدنيا يدرك منه كل جيل مالم يدركه من سبق[1].

فالوحي يتجدد فهمه وتنبعث أسراره وتتفرع أحكامه بانبعاث العلم وتقدم الأزمان وسيأتي من يدرك ما لم يدرك.

قصة سيف رسول الله في غزوة أحد: من يأخذ مني هذا السيف بحقه

روى البيهقي في دلائل النبوة عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ سيفا يوم أحد، فقال من يأخذ مني هذا السيف بحقه؟ فبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول: أنا أنا، فقال: من يأخذه بحقه؟ فأحجم القوم فقال له سماك أبو دجانة: أنا آخذه بحقه. قال: فأخذه ففلق به هام المشركين[2].

وكان الزبير بن العوام، ممن قام إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: فقلت أنا يا رسول الله فأعرض عني، ثم قال: من يأخذ هذا السيف بحقه فقام أبو دجانة سماك بن خرشة فقال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه فما حقه؟ قال: ألا تقتل به مسلما ولا تفر به عن كافر، قال: فدفعه إليه]

قال الزبير [والله لأنظرن ما يصنع، فأتبعه، فأخرج عصابة حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت! وهكذا كانت تقول له إذا تعصب لها، فخرج وهو يقول:

أنا الذى عاهدنى خليلى.. ونحن بالسفح لدى النخيل

أن لا أقوم الدهر فى الكيول [3] أضرب بسيف الله والرسول. فجعل لا يلقى أحدا إلا قتله]

[حتى انتهى إلى نسوة في سفح جبل معهن دفوف لهن، فيهن امرأة وهي تقول:

نحن بنات طارق.. نمشي على النمارق.. إن تقبلوا نعانق.. ونبسط النمارق.. إن تدبروا نفارق.. فراقا غير وامق.

قال: فأهوى بالسيف إلى امرأة ليضربها، ثم كف عنها، فلما انكشف القتال قلت له: كل عملك قد رأيت ما خلا رفعك السيف على المرأة. ثم لم تضربها؟ قال أبو دجانة: إنها نادت فلم يجبها أحد فكرهت أن أضرب بسيف رسول الله امرأة لا ناصر لها[4]، وقال أبو دجانة: رأيت إنسانا يخمش الناس خمشا شديداً[5]، فصمدت إليه، فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة[6].

وإذا بالأخبار تكشف مزيدا من العلم وأن المرأة هي هند بنت عتبة . امرأة أبي سفيان . التي كتبها الله في الأزل أن تؤمن بالله ورسوله ؟ فقال الزبير: فقلت: **الله ورسوله أعلم؟**[7]

حدود العقل أمام النقل

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: جعل الله لإدراك العقول حدا[8]

فالقول بتحكيم العقل على السنة قبولا وتأويلا وزن للمدود بالمحدود وللقوة بالضعف وللعلم بالجهل.

وفتح لباب الفوضى والتلاعب أمام العقول المختلفة.

1 موسوعة الإعجاز العلمي للأستاذ النابلسي 12 - ط دار المكتبي.
2 دلائل النبوة للبيهقي 3 / 182-183 حديث رقم 1116 - 1117 ط دار الحديث – القاهرة. ورواه مسلم في الصحيح -
3 الكيول بفتح الكاف وتشديد الياء المضمومة هي: مؤخرة الصفوف لسان العرب -196/12 – كيل.
4 البزار في مسنده [2/ 34-35 رقم 1038ط دار الحديث / القاهرة.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله ثقات [6/ 109] .
5 الخمش: الخدش في الوجه وقد يستعمل في سائر الجسد ـ لسان العرب (6/ 299).
6 دلائل النبوة 3/ 182- 183 .
7 البداية والنهاية لابن كثير 17/2 - غزوة أحد وما ورد في أحد من الأخبار .
8 الاعتصام 2 للشاطبي / 318 ط دار الفكر .

وكل من رد شيئا من الدين أو حرفه، ادعى أنه يخالف العقل. بل إن قريشا لما أنكروا الدين زعموا هذا. لكن بمرور الزمن بين الله تعالى أن القضية تعلقت بقصور هذا العقل أمام صحة النقل ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ **يونس**

- لذلك كان من السداد لطالب العلم أن يبدأ بما بدأ الله به من الأسس والضوابط المنيرة للعقل والموجهة له.

لتثبت لديه حكمة الله وعلمه وقوته وقدرته وشمولية دينه، ويثبت لديه أيضا عجز نفسه وجهله وضعفه. ليستدل على مالم يدرك بما ثبت لديه من علم الله وجهل الإنسان، و من قوة الله وضعف الإنسان ومن هيمنة الدين على قصور الدنيا لذلك لما سأل موسى ربه ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ **[الأعراف]**

ولما سأله إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ﴾لم يره الكيف وإنما أراه القدرة ثم قال له ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

فالمطلوب من طالب العلم المسدد، البحث عن هذه الحقائق أولا ليعتقد بها. فمن ثم قعد العلماء قاعدة: ابحث ثم اعتقد، ولا تعتقد ثم تبحث. لأن الاعتقاد قبل البحث لا يكسب القاعدة والمنهاج فكلما وقف مع صورة لا يدركها عقله تشتت ذهنه أمامها فإن أقدم على ردها أو تأويلها بلا قاعدة لم يسلم.

قال الإمام الشاطبي: والثاني من أسباب الخلاف: اتباع الهوى، ولذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء، لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورا فيها من وراء ذلك[1].

لهذا: فإذا صح النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم عند النقاد، وعمل السلف الصالح به وجب التسليم فكل مخالفة مضادة لمن سبق فهي مردودة على صاحبها. يقول مالك رحمه الله: وما لم يكن يومئذ دينا فلن يكن اليوم دين[2].

غوامض تحير الضال

وليعلم المتعامل مع السنة المشرفة أن الله تعالى ابتلى العباد بالصور فجعل في ظاهر بعض النصوص ما لا يدركه العقل أو ما يستثقل فعله، أو ما يبدو منه مخالفة الواقع، أو ما ظاهره حسنا ونحو ذلك، فيلجأ المتحكم بعقله إلى رده واستبعاد صحته، أو إلى تأويله، أو استباحة ما هو حرام. لذلك سدد الله العقل فأرشده بقواعد وضوابط فقال ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ **البقرة**

وفي قصة موسى مع الخضر عليهما السلام. في أواخر سورة الكهف درس متين مكين لعقيدة المسلم من إقدام العقل ومتاهاته. بين الله تعالى وفرق بين مدركات العقل ومدركات العلم والفهم فظهر على الخضر صور جعلت موسى ينسى اتفاقه معه فكلما رأى منه صورة انكرها ولكن بتأويلها استسلم.

فالقصة مما يعلم الله به الحصانة بالنقل الصحيح

فأبلى الله العباد بالصور، وأرشدهم بالعلم فإذا صح الخبر وسبق عن الأمة العمل وجب التسليم.

وفي هذا السياق يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فصل: غوامض تحير الضال.

تفكرت يوما في التكليف فرأيته ينقسم إلى سهل وصعب. فأما السهل: فهو أعمال الجوارح وهو على درجات منه السهل كالصلاة والصيام والزكاة. ومنه المستصعب كالنظر والاستدلال الموصلان إلى معرفة الخالق وقهر النفوس ومجاهدة الهوى، فكل هذا سهل إذا حقق الإنسان النظر في التوابع والنتائج فهذا القسم بعمومه سهل

1 المصدر السابق 176/2)
2 المصدر السابق 49/1

ـ إنما أصعب التكاليف وأعجبها: أنه قد ثبتت حكمة الخالق عند العقل ثم نراه: يفقر المتشاغل بالعلم، المقبل على العبادة، حتى يعضه الفقر بناجذيه فيذل للجاهل في طلب القوت، ويغني الفاسق مع الجهل حتى تفيض الدنيا عليه ثم نراه ينشئ الأجسام ويحكمها، ثم ينقض بناء الشباب في مبدئ أمره.

. ثم نراه يؤلم الأطفال، حتى يرحمهم كل طبع، ثم يقال له: إياك أن تشك في أنه أرحم الراحمين.

وفي مثل هذه الأشياء تحير خلق، حتى خرجوا إلى الكفر والتكذيب، ولو فتشوا على سر هذه الأشياء، لعلموا أن تسليم هذه الأمور تكليف العقل ليذعن[1].

ويقول سيد قطب رحمه الله: إن وعد الله قاطع جازم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ **غافر**

.. بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذبا مطرودا، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب، وفيهم من يلقى في الأخدود، وفيهم من يستشهد، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد.. فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل، ويفعل بها الأفاعيل! ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور. ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير.

إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان. وهي مقاييس بشرية صغيرة. فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر[2].

يقول الشيخ المرحوم: سليمان دنيا: لجأ هذا الإمام العظيم إلى إقامة ميزان عدل صحيح كما عرفه من دينه الحنيف، خدمة للعلم وطلابه، يتحصنون به عن الخطأ في الفهم كلما خاضوا في تفسير النصوص الشرعية، أو تعاطوا تأويلها.

ولا شك أن طالب العلم إذا اغفل مثل هذه الموازين الحقة، والقوانين المضبوطة، لم يكد يسلم من هجنة التقصير وسوء التأويل[3]، فالعلم طريق نوراني من طلبه بأسبابه رزق من نوره ما يمشي به سالما وغانما قال الله تعالى ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ **الأنعام**

ـ الضابط الخامس: مراعات التخصص في نقد الحديث وتأويله

وارتباطا بما سبق فإن نقد الروايات في السنة النبوية لا يجوز أخذها إلا عن المتخصصين الذين أفنوا أعمارهم في دراسة الحديث من حيثياتها المختلفة حتى تكاملت عندهم وسائل الإدراك علما ومنهاجا وتطبيقا وفق تزكية الأمة وشهادتها. ووفق ما يصف ابن القيم رحمه الله في وصفه الدقيق عندما سئل: هل يمكن معرفة الحديث الموضوع بضابط من غير أن ينظر في سنده ؟ فقال:

فهذا سؤال عظيم القدر وإنما يعلم ذلك من تضلع في معرفة السنن الصحيحة واختلطت بلحمه ودمه وصار له فيها ملكة وصار له اختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار ومعرفة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهديه فيما يأمر به وينهى عنه ويخبر عنه ويدعو إليه ويحبه ويكرهه ويشرعه للأمة بحيث كأنه مخالط للرسول صلى الله عليه وسلم كواحد من أصحابه. فمثل هذا يعرف من أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه وكلامه وما يجوز أن يخبر به وما لا يجوز، ما لا يعرفه غيره وهذا شأن كل متبع مع متبوعه فإن للأخص به الحريص على تتبع أقواله وأفعاله من العلم بها والتمييز بين ما يصح أن ينسب إليه وما لا يصح ما ليس لمن لا يكون كذلك وهذا شأن المقلدين مع أئمتهم يعرفون أقوالهم ونصوصهم ومذاهبهم والله أعلم[4].

وقال رجل لعبد الرحمن بن مهدي من أين تقول هذا صحيح وهذا ضعيف ؟ فقال له: إلزم عملي هذا عشرين سنة حتى تعلم منه ما أعلم[5].

1 صيد الخاطر لابن الجوزي ـ فصل غوامض تحير الضال ص 12 ط دار ابن الهيثم
2 في ظلال القرآن لسيد قطب 189/7 - ط. دار إحياء التراث العربي
3 مقدمة التحقيق لكتاب قانون التأويل لأبي بكر بن العربي.
4 المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم (37-38 الفصل الخامس ط. دار الكتب العلمية .
5 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي 2/ 383 - ط مؤسسة الرسالة .

. فالعلماء المتخصصون ورثة النبي صلى الله عليه وسلم كل طائفة في تخصصها. قال ابن حجر: وإذا تكلم المرء في غير فنه أتى بهذه العجائب[1]، وإذا احترم الدارس تخصص غيره فاستعان به على دراسته، صح تصوره وسلم تصرفه، واجتمع في دراسته ما تفرق في غيره فحُفت بالسداد وشُدَّت ورزقت التوفيق. وقد ورد عن الإمام مالك قوله: عرضت كتابي هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة، فكلهم واطأني عليه فسميته الموطأ[2].

وورد عن الإمام مسلم قوله: عرضت كتابي هذا (المسند) على أبي زرعة، فكل ما أشار علي في هذا الكتاب أن له علة وسببا تركته، وكل ما قال: إنه صحيح ليس له علة، فهو الذي أخرجت.ولو أن أهل الحديث يكتبون الحديث مائتي سنة، فمدارهم على هذا المسند[3].

وكذلك الشأن في التأويل فالمتخصصون فيه هم منار طالب السداد وقد سبق في الضابط الثالث أنهم معدودن، محدودن في كل طبقة، لهم تأهيل خاص، ولزوم مستمر مع السنة بذلك يكتسبون موهبة الإدراك فيما هم فيه. وهذا معلوم من سنن الله في كل شيء فالملازم للعبادة يدرك ما لا يدركه غيره ويرى ما لا يراه ويوهب من ربه منازل الحفظ والرعاية والعطاء الخاص. ففي الحديث القدسي قال الله تعالى [وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه][4].

فالمتخصص في علم مثل المتخصص في عبادة. فكان مجموعة من المحدثين تخصصوا في علم التأويل وصنفوا في الأحاديث المشكلة – كما سبق– مثل ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث، والطحاوي في شرح مشكل الآثار وابن حجر في ثنايا شرحه لصحيح البخاري، والنووي في شرحه لصحيح مسلم وعامة الشروح التي التزم اهلها بسائر الضوابط الواقية من الانحراف. فهي متمسك من يريد أن يستبرئ لدينه وعرضه. فمخالفة هذا الضابط يوقع في مخالفات ومتاهات علمية وعملية.

وفي كتب التراث الإسلامي كثير من الأحكام المرجوحة والضعيفة والباطلة بنيت على أحاديث واهية أو موضوعة، أو على تأويلها تأويلا باطلا. وسبب كل ذلك إهمال تحكيم التخصص المتكامل المطلوب في أي دراسة.

أخبار الآحاد هي السنة النبوية

وخبر الآحاد هو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أمر الله باتباعها فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ **الحشر**

لأن نسبة المتواتر في الآحاد نسبة محدودة جدا، وأكثر الأحكام الشرعية ثابتة بالآحاد.

لذلك لم يختلف الائمة المؤصلون لقواعد الحديث في وجوب العمل به.

وسار على ذلك جمهور المحدثين والمحققين تأصيلا وتفصيلا وفي طليعتهم الإمام الشافعي الملقب بناصر السنة.

فمن حيث التأصيل: فقد أصل الإمام الشافعي لوجوب العمل بخبر الواحد وناصره في رسالته وفي مباحث متفرقة من كتابه الأم كما سيأتي.

وقال ابن حزم: خبر الواحد إذا اتصل برواية العدول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجب العمل به، ووجب العلم بصحته أيضا. والبرهان على صحة وجوب قبوله قول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ **التوبة**[5]

1 فتح الباري لابن حجر 683/3 تحت حديث رقم: 1753 ط. دار الريان للتراث .
2 الحديث والمحدثون لأبي زهو ص 246. ط. دار الكتاب العربي .
3: سير أعلام النبلاء ط الرسالة 12 / 568. مؤسسة الرسالة .
4 اخرجه البخاري - فتح الباري 388/11 رقم: 6502.
5 الإحكام في أصول الأحكام 103/1 ط. دار الجيل

وقد تعامل المحققون بمدلول هذا الحكم ونقلوا خلاصته في مصنفاتهم منهم الشيخ أبو زهو في كتابه: الحديث والمحدثون – والشيخ المعلمي في كتابه: الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة – والشيخ مسفر الدميني في كتابه: مقاييس نقد متون السنة . والشيخ السباعي في كتابه: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي وغيرهم.

وتحدثوا عن حجية الآحاد باعتباره قاعدة ومنهاجا.

ومن حيث التفصيل: فإن استدلال كافة الأئمة في مصنفات السنة، أو في استدلالهم على الاحكام الفقهية ظاهر بين وكل الأحكام الشرعية في مختلف ميادين الحياة تبنى في كل عصر ومصر بالآحاد.

وأما ما يروجه بعض المخلطين من التقليل من خبر الآحاد فهو خروج عن المنهاج الحصين يوقع في متاهات ضارة لا محالة.

وأما ادعاؤهم الاستدلال بفعل عمر [مع أبي موسى الأشعري قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: كنت جالسا في مجلس من مجالس الأنصار فجاء أبو موسى فزعا، فقلنا ما أفزعك ؟قال: أمرني عمر أن آتيه فأتيته فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت، فقال: ما منعك أن تأتيني ؟ قلت: جئت فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع.] فقال عمر: لتأتين على هذا بالبينة. وفي رواية مسلم: فقال له عمر: أقم عليه البينة وإلا أوجعتك. فقال أبو سعيد: لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فقام أبو سعيد معه فشهد له. فقال له عمر: إني لم أتهمك ولكن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد. وفي رواية: أما إني لم أتهمك ولكن خشية أن يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم][1].

فالترامي على حجية الآحاد بمثل هذه الصورة إجحاف وظلم للسنة ولعمر نفسه فإن مصطلح الآحاد لم يكن قد أحدث حتى يعمم خبر الآحاد بهذه الصورة – أو بقصة عمر مع فاطمة بنت قيس .

. ثم إنه لما قام أبو سعيد الخدري فشهد معه فلماذا سكت عمر واستصغر نفسه واعتذر والحال أن الخبر مازال آحادا؟ أليس هذا من ظلم السنة ومن التزوير على عمر؟

ثم إن حياة عمر مملوءة باستدلاله بالآحاد وهي التي تصور منهاجه تجاه الآحاد وليست الحالات المعدودة، التي هي واضحة السياق والمسار في التريث من قبول الحديث ليس إلا.

يقول الأستاذ سالم البهنساوي: **أخطاء وجناية ضد السنة**

إن قول عمر بن الخطاب: «لاَ نَدَعُ كِتَابَ رَبِّنَا وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْلِ امْرَأَةٍ لاَ نَدْرِي أَحَفِظَتْ أَمْ نَسِيَتْ». وكذلك تَحَفَّظَ بعض الصحابة كأبي بكر وعلي وعائشة وتحريهم نسبة الحديث إلى النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أصبح لدى بعض علماء عصرنا وخصوصًا بعض أساتذة علوم الشريعة منهجًا خاصًا في شأن رد خبر الآحاد لأنه ظني الثبوت مع أن هؤلاء الصحابة لم يصرحوا أو يلمحوا بذلك، بل لم يعرفوا اصطلاح المتواتر والآحاد لأنه ظهر بعد عصرهم[2].

الترويج للتقديم على أخبار الآحاد تحريف للحقيقة

يعتبر الشيخ الغزالي ممن يقلل من حجية الآحاد بسبب: غلبة العقل عنده، بعده عن مجال النقد الحديثي، استغناؤه عن استشارة أهل التخصص. ولذلك وقع في كثير من الحالات في الاستدلال بالأحاديث الضعيفة والموضوعة.

فقال: إن حديث الآحاد يتأخر حتما أمام النص القرآني والحقيقة العلمية والواقع التاريخي، أو يتأخر كما يقول المالكيون أمام عمل أهل المدينة، وأمام القياس القطعي كما يقول الأحناف. ذلك ما هديت إليه، فإن كان حقا فمن الله، وإن كان خطأ فمني وأستغفر الله أولا وآخر[3].

1- أنظر الحديث متكاملا برواياته في: صحيح مسلم ـ كتاب الأدب باب الاستئذان ج14 /130 - 131) ط دار الفكر / وفي صحيح البخاري - كتاب الاستئذان باب التسليم والاستئذان ثلاثا 11 فتح الباري /28-29 حديث (6245) ط دار الريان للتراث / وسنن أبي داود كتاب الأدب /باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان 370/5 - 372 - حديث (5180) وحديث (5183) - (5184) ط. دار الحديث – حمص

2 السنة المفترى عليها للأستاذ سالم البهنساوي ـ (ص: 148)

3 السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث 205

مناقشة هذا الترويج

وهذا الزعم مردود. فقد أوضح أئمة النقد المحجة وأقاموا الحجة من خبر الآحاد وأنه هو السنة والمنهاج والقاعدة. أمثال الشافعي والبخاري ومسلم.. وغيرهم؟ الذين أفنوا أعمارهم مع السنة علما وعملا حتى وهبوا إدراكا خاصا ونالوا فيه شهادة الأمة المعصومة.

قال الشيخ السباعي: وفي الحق أن "رسالة الشافعي وبحوثه في "الأم" من أثمن ما ألفه العلماء دفاعاً عن حُجِيَّةِ السُنَّةِ ومكانتها في التشريع بأسلوب قوي جزل، وأدلة دامغة قاهرة، ولا ينكر كل من كتب في مصطلح الحديث وفي مباحث السُنَّةِ والكتاب من علماء الأصول، أنه مدين للشافعي فيما كتب، ومن هنا كان صحيحاً ما يقوله محمد بن الحسن: إِنْ تَكَلَّمَ أَصْحَابُ الحَدِيثِ يَوْمًا فَبِلِسَانِ الشَّافِعِيِّ.

وما قاله الزعفراني: كانَ أَصْحَابُ الحَدِيثِ رُقُودًا فَأَيْقَظَهُمْ الشَّافِعِيُّ. ومن هنا أجله علماء الحديث وذكروه بكل خير، فقال فيه أحمد بن حنبل: مَا أَحَدٌ مَسَّ بِيَدِهِ مَحْبَرَةً وَلاَ قَلَمًا إِلاَّ وَلِلْشَّافِعِيِّ فِي رَقَبَتِهِ مِنَّةٌ[1].

وقد أعلن الشافعي رأيه الذي يخالف فيه مالكاً وأبا حنيفة: هو أن الحديث متى صَحَّ بالسند المتصل إلى النَّبِيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يجب العمل به من غير تقييده بموافقة عمل أهل المدينة كما اشترط مالك، أو بالشروط المتعددة التي اشترطها أبو حنيفة[2].

وحينما يتحدث أهل التحقيق عن حجية خبر الآحاد، يتحدثون عنه باعتباره قاعدة و منهاجا. بمعنى أنه هو الحاكم على ما يعارضه من الصور والقواعد التي يتناقلها ويتزعمها بعض المفكرين أو العقلانيين أومن يدرس الفقه بعيدا عن مناط الاستدلال عند أهل هذا الباب.

الاستدلال بعمل اهل المدينة على أخبار الآحاد

تحريف وتخليط فاحش نجده في إطلاق الكلام عن علماء المالكية أنهم يقدمون عمل أهل المدينة على خبر الآحاد. حتى أصبح ذلك قاعدة حاكمة عند البعض والواقع ليس كذلك فنسبة القول إلى مالك أو المالكية بتقديم عمل أهل المدينة مطلقا تحريف كبير، وقد فصل في ذلك القاضي عياض واثبت التفصيل في ذلك[3] ثم إن المسالة من أصلها مع الإمام مالك قد عارضه فيها الأئمة منهم الإمام الليث بن سعد

قال الدكتور السباعي: ومن هنا استدرك عليه الليث بن سعد سبعين سُنَّةً ترك الأخذ بها وهي في موطئه، ولم يوافقه بقية الأئمة والعلماء من بعده على هذا. وَمِمَّنْ ناقشه في ذلك الإمام الشافعي – رَحِمَهُ اللهُ –، وتتالى العلماء من بعده يناقشونه في ذلك، ومن أشهر من رَدَّ عليه حُجِيَّةَ عمل أهل المدينة ابن حزم، فقد ناقشه في كتابه " الإحكام في أصول الأحكام " نقاشاً قوياً، وكذلك رَدَّ عليه في بحوث متفرقة من كتابه " المُحَلَّى " وهو شديد الوطأة في نقاشه العلمي مع كل من يخالفهم، ولا يعتبر عملهم حُجَّةً إلا إذا كانوا مجمعين عليه متوارثين العمل به جيلاً بعد جيل حتى عهد الرسول الكريم، وهو يرى أنهم لا يلتزمون أمراً ويعملون به جميعاً إلا إذا كان أمراً مشروعاً عمل به الصحابة في عهد الرسول وأقرهم عليه ثم توارثه من بعدهم ودرجوا عليه[4].

الاستدلال بالقياس على أخبار الآحاد

تحريف وتخليط أيضا له عائدات خطيرة على صاحب هذا الزعم وعلى استلالات الأئمة.

ففي كثير الحالات التي يزعمون فيها أن خبر الآحاد خالف القياس والواقع أن القياس في تلك المسألة فاسد. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: قياس كثير من العلماء يرد مخالفا للنصوص؛ لخفاء القياس الصحيح عليهم كما يخفى على كثير من الناس ما في النصوص من الدلائل الدقيقة التي تدل على الأحكام[5].

1 السنة ومكانتها ومكانتها في التشريع الإسلامي 440
2 السنة ومكانتها للسباعي ص 439 - 440
3 ترتيب المدارك وتقريب المسالك (1/ 51- 52).
4 السنة ومكانتها للسباعي ط المكتب الإسلامي 431/ 430 ط المكتب الإسلامي.
5 مجموع الفتاوى (20/ 568) ط. مكتبة المعرف – الرباط.

الاستدلال بالحقيقة العلمية على أخبار الآحاد

وبطلان هذا واضح بين بالحقائق العلمية ذاتها، فالحقائق لا تثبت أمام بعضها فضلا أن تثبت أمام الوحي كما سنرى.

يقول الشيخ الغزالي: واليقين الثابت بالعلم وبالوحي لا يجوز أن يتقدم عليه ظن علمي يرويه حديث آحاد، يزعم فيه الراوي أن الأنوثة تنشأ من علو ماء الرجل[1].

والحقيقة العلمية الثابتة عنده بيقين هي:

أن ماء الرجل هو المسئول الوحيد في تحديد جنس الولد ذكرا او أنثى وليس لماء المرأة دخل في هذا[2].

والحديث الذي رده بهذه الحقيقة هو:

ما رواه مسلم من حديث ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أحبار اليهود قال: ... [وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: «ينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة، أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل، آنثا بإذن الله». قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف فذهب... الحديث.[3]

فالحديث يقرر أن كلّا من ماء الرجل والمرأة مسئول في تحديد جنس الولد ذكرا أو أنثى.

والشيخ الغزالي يقول: وليس لماء المرأة دخل في هذا.

وكان على الشيخ الكريم ان يقتصر في بحثه على جانب تخصصه – المسائل الفقهية والتحليل الفكري فهو بارع في ذلك – ويترك مجال النقد للنقاد أو يسلك مسلكهم فيحمي دراسته من مثل هذه الاشياء المبنية على تجربة زمن قصير جدا في زمن الدنيا سرعان ما تتبخر.

ومسلك المحدثين تجاه هذا الحديث تعدد – لكن في نطاق قواعدهم الخاصة دون الالتفات إلى العلم التجريبي القاصر الغير المستقر أمام الشرع – فمنهم من توقف في اللفظة المتشابهة في حديث ثوبان **[إذا علا ماء الرجل أذكرا وإذا علا ماء المرأة آنثا]** مع المحفوظ من حديث عائشة **[إذا علا ماؤها ماء الرجل، أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه]**[4].

فردوا لفظة الحديث بما يلي:

– ان الحديث وارد في الشبه وليس في تحديد الجنس فاللفظة الأولى شاذة، والثانية هي المحفوظة وهذا هو مذهب ابن تيمية.

–أن الخلل دخل من قبل رواة اللفظة الأولى

– مخالفتها للقرآن كقوله تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ النجم

ومن المحدثين من أيد الحديث. ومنهم من توقف تحسبا لما تفجره الدنيا من علم آخر مناقض لغيره، لأن أصول السنة ثابتة يتجدد بها الإعجاز كل حين.

وها نحن بذلك الزمن قد حل فأضاف علماء الاكتشاف اتجاها ت اخرى أبطلت الحقيقة التي قال عنها الشيخ الغزالي رحمه الله: إنها حقيقة علمية ثابتة.. وإنها اليقين الثابت بالعلم؟

فأفدت بعض الدراسات أن المسئولية عن تحديد جنس الجنين مشتركة بين الرجل والمرأة، كما نطق بذلك حديث ثوبان. كما قرر ذلك الدكتور زغلول النجار في كتابه: الإعجاز العلمي في السنة النبوية. وأفاد أن حديث ثوبان هو تفسير لقوله تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ

1 السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث 205 ط. دار الشروق.
2 السنة بين اهل الفقه وأهل الحديث 205.
3 صحيح مسلم - شرح النووي (1/ 252.
4 صحيح مسلم (1/ 251)

﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ٤٦﴾ النجم وليس معارضا له. وأن النطفة المقصودة في الآية الكريمة هي النطفة الأمشاج أي المختلطة، وهو أول تعبير علمي دقيق عن عملية تخلق الجنين باتحاد نطفتي الرجل والمرأة[1].

وكما قرر أيضا الدكتور محمد علي البار في كتابه: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، والدكتور جمال حمدان حسانين في مقال له[2].

وهناك اتجاه آخر يجعل المسئولية في ذلك لم تعلم بعد وأن السبب المحدّد سر من أسرار الله تعالى. وأيد هذا الاتجاه بكلام رائع لابن القيم رحمه الله قال: والإذكار والإيناث ليس له سبب طبيعي، وإنما هو بأمر الرب تبارك وتعالى للملك أن يخلقه كما يشاء، ولهذا جعل مع الرزق والأجل والسعادة والشقاوة [43] **فخلاصة المنهجين، المحدثين والغزالي ومن معه**

أن موقف المحدثين الذين صححوا الحديث هم المؤيدون بالحقيقة العلمية.

وموقف المحدثين الذين ردوا الحديث اعتمدوا أساسا على قواعد النقاد في مبحث المحفوظ والشاذ. وهذا منهج محفوف بالخير محفوظ من الانحراف، لأنه في مسار القواعد العلمية الإسلامية صاحبه له وعد بالأجر أصاب أم أخطأ. ثم إنه منهاج يتعلق برد حالات معينة وهي هنا اللفظة المخالفة لكونها شاذة ولم يمس القاعدة التي هي خبر آحاد.

أما منهاج الغزالي فإنه يرد الحديث باعتباره آحادا خالف الحقيقة العلمية فالحقيقة العلمية عنده هي القاعدة المركزية يضعف بها كل آحاد خالفها. فالتحريف في شيئين: رد هذا الحديث . التقرير لنصرة الحقيقة العلمية على كل الآحاد. وهذا شيء خطير فالحقائق العلمية غير مستقرة، ثم إنه من الممكن أن تصنع قواعد علمية وهمية للطعن في الأحكام الشرعية.

لذلك ينبغي الحذر في بابي النقد والتأويل من صاحب تحكم عقلي أو صاحب تخصص علمي بعيد عن دراسة النقد الحديثي، إذا تحدث عن مسألة الثبوت والتأويل. فإنهم إذا وقعوا أمام حديث مشكل في ظاهره قدموا العقل عليه[5]، فاستسهلوا الكلام حول ثبوته، فيردونه أو يعطلونه. ثم يعممون الاستدلال عليه بما هو خاص من قواعد العلماء كما سبق فيقع التأويل والتحريف من جهتين: تحريف النص النبوي – وتحريف استدلال.

ـ تعليل الحديث بعلة خاصة

الجزم بعلة مستنبطة على أنها مقصود الشارع في اللفظ النبوي أو القرآني، إشكال قد يتسع فيؤدي إلى تعطيل كثير من أحكام الدين أو تأويلها تأويلا خارجا عن نطاق الصواب.

أنقل هذا النص الآتي عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في سياق يبين أن ما أطلقه الله تعالى من احكامه يعتبر حدودا من حدوده وقد نهى عن الاعتداء عليها ولاقتراب منها. وحصر ما أطلقه الله من علل الأحكام تعد لتلك الحدود له عواقبه.

يقول شيخ الإسلام: ومن اعتقد في بعض المحرمات أنه إنما حرم لعلة كذا وتلك العلة مقصودة فيه فاستباحه بهذا التأويل فهو ظلوم لنفسه جهول بأمر ربه وهو إن نجا من الكفر لم ينج غالبا من بدعة أو فسق أو قلة فقه في الدين وعدم بصيرة[6].

فعلى سبيل المثال فإن العلة الظاهرة من عدة المطلقة أو المتوفى عنها، هي ظهور حملها من عدمه، فإذا عللت العدة بهذه العلة فقط لربما قال قائل: لا عدة على صاحبة الثمانين، لأن احتمال حملها ليس بوارد. وإذا فتح هذا الباب فإنه يتوسع إلى ما هو أقبح من هذا، فيقول قائل آخر: إن الصغيرة بدورها أيضا تستغني عن العدة بالكشف الطبي.

1 الإعجاز العلمي في السنة النبوية للدكتور زغلول النجار 248 ط. دار نهضة مصر
2 نشر في موضوع: أقوال العلماء والأطباء في مسئولية ماء الرجل وماء المرأة في تحديد جنس الجنين / موقع: الإسلام سؤال وجواب للشيخ محمد صالح المنجد.
3 الإعجاز العلمي في السنة النبوية للدكتور زغلول النجار 248 - وكذلك المقال السابق في موقع: الإسلام سؤال وجواب للشيخ محمد صالح المنجد.
4 إعلام الموقعين 4 / 269 ط. دار الفكر
5 أنظر مثلا: حوار هادئ مع محمد الغزالي للدكتور سلمان العودة
6 الفتاوى الكبرى لابن تيمية 174/6. ط. دار الكتب العلمية

وقد وجد مثل هذا النوع. ذكر الدكتور أحمد الريسوني في إحدى محاضراته أن المقاصد في هذا العصر قد تستعمل استعمالا سيئا خاصة من بعض العلمانيين، وقدم مثالا بالكاتب التونسي نور الدين بوثوري والذي تحدث عن التجديد المقاصدي في فقه الطاهر بن عاشور رحمه الله فوصل في النهاية إلى انتقاده لكونه لم يأت بجديد ويذكر في كتابه ان المسلم اليوم لم يعد يستسغ الكثير منها – يقصد الشريعة الإسلامية–كتعدد الزوجات والرجم والجلد ، او في العدة التي تلزم فيها المرأة المطلقة أن تعتد ثلاثة قروء والأرملة بأن تتربص أربعة اشهر وعشرا والمقصد الأساس كما يقول أن تتثبت المرأة من وجود الحمل وعدمه والحال أن وسائل الكشف تمكننا من ذلك يقينا خلال نصف أقصر المدتين كما يقول[1].

وهذا التحريف، انحراف لا يتوقف بالإنسان حتى يتزندق وهذا معنى قول الله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ آل عمران

والدارس الناجح مطلوب منه أن يتلمس أسرار الشرع وحكمه ليلمس بذلك روح الإسلام فيتأثر ويؤثر، لكن لا يغلق الباب بمجرد إدراكه لشيء من ذلك فمهما ظهرت العلة من الأمر أو النهي فإن العلة الثابتة مع كل حكم هي علة التعبد لله تعالى ففي هذا فتح لباب تجديد الدارسة للدين ومسايرته للحياة مع الوقاية من الانحراف بمنهاج الأمة. وهذا من أسرار إطلاق الأحكام دون التعرض لتعليلها في أكثر نصوص الوحي ومن ثم قال ابن رشد: العلة المنصوص عليها أولى من المستنبطة [2] لأن المستنبطة قد تكون كما يظن المستنبط وقد لا تكون كذلك وقد تتعدد وقد لا.

وفي قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها خطبها صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة فلم ترض به لكونه ليس كفؤا لها. ولكن لله تعالى في هذا الزواج حكم فقد كان زيد يدعى ابن محمد والله تعالى قد حرم التبني بالقول، وأراد أن يزيده تحريما بهذه الزواج ليتاكد الناس أن زيدا ليس ابن محمد. فلما امتنعت زينب من ذلك أنزل الله قوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ الأحزاب

فلم يبين لها علة أمره لها لأن ذلك هو مكمن الابتلاء والامتحان. إذ لو علم العبد الحكمة من كل شيء لربما وقع التجاذب في عبادته بين إخلاصه ومصلحته.

فالحصانة جعلها الله تعالى في الحرص على الفهم عنه سبحانه وتعالى والتسليم لأمره ونهيه على نهج الأمة كما علم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١﴾ النور

اللهم اجعلنا ووالدينا وذوينا وجميع المسلمين والمسلمات من المفلحين المرحومين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

1- أسد الغابة لابن الأثير ط. دار الكتب العلمية

2. الإسلام المفترى عليه للشيخ الغزالي ط نهضة مصر

3- الإعجاز البياني للدكتورة عائشة بنت الشاطئ ط. دار المعارف

4- الإعجاز العلمي في السنة النبوية للدكتور زغلول النجار ط دار نهضة مصر

5- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية ط دار الفكر بيروت

6- إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد لابن الوزير اليماني . المكتبة الشاملة

7- بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد. الناشر: المكتب الثقافي السعودي بالمغرب

1 انظر محاضرة للدكتور أحمد الريسوني المقاصد الشرعية والإمام الشاطبي / أحمد معاذ الخطيب الحسني - الموقع الرسمي- دربنا. نت

2 بداية المجتهد ونهاية المقتصد 372/2 ـ كتاب العتق ـ الناشر: المكتب الثقافي السعودي بالمغرب

8- البداية والنهاية لابن كثير ط. دار الفكر
9- التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر .ط. المكتب الإسلامي
10 – الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ط دار الكتب العلمية.
11- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي – ط مؤسسة الرسالة
12-الحديث والمحدثون لأبي زهو ط. دار الكاب العربي
13 -حوار هادئ مع محمد الغزالي للدكتور سلمان العودة – ط. دار الوطن
14 – دلائل النبوة للبيهقي ط دار الحديث – القاهرة
15 – رأس الحسين لشيخ الإسلام بن تيمية تحقيق ودراسة: الدكتور السيد الجميلي – المكتبة الشاملة
16 – الرسالة للإمام الشافعي بتحقيق الشيخ أحمد شاكر. ط دار الفكر
17 – سنن الترمذي. ط دار الكتب العلمية
18- سنن ابن ماجه. ط دار الكتب العلمية
19- السنة المفترى عليها للأستاذ سالم البهنساوي . المكتبة الشاملة
20 – السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث للغزالي
21 – السنة ومكاننتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي ط. المكتب الإسلامي
22 – سير أعلام النبلاء للذهبي ط. مؤسسة الرسالة
23 – شرح السنة للإمام البغوي ط دار الكتب العلمية
24 – شرح مختصر الصارم المسلول . لمحمد حسن عبد الغفار / المكتبة الشاملة
25 – صحيح البخاري بفتح الباري لابن حجر ط. دار الريان
26 – صحيح مسلم بشرح النووي. ط دار الفكر
27 – صحيح ابن حبان – بتحقيق شعيب الأرنئوط . ط الرسالة العالمية
28 – صيد الخاطر لابن الجوزي . ط دار ابن الهيثم
29- الاعتصام للإمام الشاطبي ط. دار الفكر
30 – فتح الباري لابن حجر ط. دار الريان للتراث
31 – الفتاوى الكبرى لابن تيمية.ط. دار الكتب العلمية
32 – في ظلال القرآن لسيد قطب ط. دار إحياء التراث العربي
33 – قانون التأويل لأبي بكر بن العربي بتحقيق الأستاذ: محمد السليماني ط. دار الغرب الإسلامي
34- لسان الميزان لابن حجر ط. دار الكتاب الإسلامي .
35- لسان العرب لابن منظور ط. دار صبح
36-المستدرك على الصحيحين للحاكم ط دار ابن حزم
37-مسند البزار ط دار الحديث – القاهرة
38- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للسخاوي ط دار الكتب العلمية
39 – المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم ط. دار الكتب العلمية
40- موسوعة الإعجاز العلمي للأستاذ النابلسي. ط دار المكتبي